خاتمة القصيدة العربية

ودلالتها التاريخية والفنية

دكتور : محمد كاظم حسن الظواهرى
مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية

انصرفت عناية نقاد الأدب العربى قديما الى وصف عمود الشعر العربى وحث الشعراء من المحدثين والمولدين على العناية به والمحافظة عليه ، وثارت بينهم المناقشات والخلافات حول هذا العمود • وذهب كل فريق الى تبنى أوصافا عدة له ، منها ما يتصل بالمعنى ، وبعضها انصب على الخيال والتصوير ، والوزن والقافية ، وأولى أكثرهم مطالع القصيد عناية خاصة (١) ، ولكن لم يشر أحد منهم الى خاتمة القصيدة ، كما لم يتعرض كثير من غيرهم من النقاد والبلاغيين وحتى الشراح والرواة لهذا الأمر ، اللهم الا قليلا من المتأخرين الذين عرضوا عرضا لا يشفى غلة باحث أو حتى شاد من شداة الأدب ! •

كان هذا كافيا لاثارة تساؤل كبير لدى فى عصر كثر فيه لغط المتهجمين على الشعر العربى ، على اختلاف مراميهم ووسائلهم ، ولا سيما من تعرضوا منهم لقضية الوحدة العضوية متهمين الشعر العربى بفقدان هذه الوحدة سواء القديم منه والحديث ، وكان هذا التساؤل يلح على دائما عندما استمع الى دفاع المتحمسين للشعر العربى ، ضد هؤلاء المتهجمين ، فما من واحد منهم الا ويؤكد أن الشعر العربى لا يفتقر الى الوحدة ، ويدلل على هذه بعشرات من الأدلة التى يستقيها من أمهات كتب الفلسفة والنقد ، أو من واقع التراث الشعرى ، ولم يتعرض أحد منهم لخاتمة القصيدة ، التى هى جزء مهم ، بل وخطير

---

(١) النقد الأدبى الحديث : د• محمد غنيمى هلال ص ١٦١ •

من أجزائها ، ولعله لا يقل خطرا عن مطلعها ، ولا شك أن هؤلاء أحوج ألف مرة من القدماء للتعرض لهذا الأمر فى سبيل اثبات هذه الوحدة ؛ ولكنهم غفلوا عنه ، كما غفل كثير منهم ، ومن معارضيهم عن طبيعة الشعر العربى الذى يصنف عادة تحت جنس الشعر الغنائى ، أى أنه باعتراف الجميع ليس من فنون الشعر الموضوعية كالملحمة والمسرحية ، ولا من فنون الأدب الموضوعى عامة فهو فن ذو طبيعة خاصة بهذا الاعتبار أولا ، وذو طبيعة خاصة بحكم اللغة التى تتخذ أداة له ، وذو طبيعة خاصة ثالثة بحكم البيئة التى ولد وعاش فيها ، وعلى الرغم من هذا اصطلح الخصوم والأعوان جميعا على معاملته مغفلين هذه الطبيعة فالخصوم يحاكمونه الى مواعد الأدب الموضوعى ، والمدافعون عنه لا يرفضون الاتهامات ، ولا يدفعون ببطلانها ، وانما يعمدون شتى الوسائل فى دفاعهم من أجل اثبات ما لا سبيل اليه ، وهو أن الوحدة الموضوعية و الوحدة العضوية جميعا شىء واحد ، ومتوافر فى الشعر العربى بمعناهما الفلسفى والنقدى ، الأمر الذى جعل القضية خاسرة من أصلها .

ولا شك أن العقاد عندما أثار هذه المسألة ضد شوقى ، كان يوظف النقد لغايات سياسية لا سبيل الى عرضها الآن ، ولكن المسألة استهوت كثيرا من النقاد من تلاميذ المستشرقين واستشرت ولم تتوقف بعد مع مضى أكثر من ستين سنة عليها وما زالت التساؤلات تتهمر على الدارسين ، ومن بينها السؤال المشار اليه آنفا حول خاتمة القصيدة :

أو ليست خاتمة العمل الفنى جزءا لا يتجزأ منه ، وينبغى أن تتصف بأوصاف معينة تمكنها من القاء شىء ما فى نفس السامع ويبلغ غايته المنشودة ؟ ثم أليس من المفترض أن الشاعر العربى يدرك هذا ، فيخرج قصيدته على نهج موافق لهذه المسلمة الفنية ، مع التجويد

الجمـالى والمعنوى المسـتطاع ؟ ثم .. ألم يدون الرواة والمؤرخون كثيرا من هذا الشعر سواء منه ما كان تاما ، وما كان ناقصا مبتورا ؟ ثم .. ألم يتدارس كبار الأدباء والنقاد والشراح هذا الشـعر فلماذا لم يقم هؤلاء وأولئك بالحديث عن هذا الجزء من القصـيدة كما فعلوا مع سائرها ؟ ثم .. لمـاذا تبع المحدثون القدماء فى تجنب الكلام عن هذه الظاهرة ؟ ثم .. هل تكون الاجابة على تساؤلات كهذه بأن نغلق باب البحث فى الموضوع قائلين : لعله ليس ثمة ما يدعو الى القول بأن خاتمة القصيدة العربية فيها شيء يستحق منا عناء البحث ؟ ولهذا فضل الجميع تجنبه ؟ !! ولعل الاجابة تكون غير ذلك .. ولكنى سـأفترض أنها كذلك وانطلق من الشك الى اليقين مفترضا أسوأ الافتراضـات وهو أن خاتمة القصيدة العربية غير ملفتة ولا تستحق اهتمام ناقد ، ومن هذا المنطلق أيضا سأطرح الأسئلة التالية :

ـ أو ليس بين يديك سبع من القصائد الطوال أجمع الرواة على أنها ذروة الشعر العربى وخير ممثل له ؟ ، ألم تنظر فيها ، أم نشدك بعض خواتيمها ، ان لم يكن كلها ؟ ، ألم يحلق بك بعيـدا مع أحاديث الغرور ، قول عمرو بن كلثوم :

ملأنا البر حتى ضـاق عنـا
وماء البحر نملؤه سـفينا
اذا بلغ الرضـيع لنا فطـاما
تخر له الجبـابر سـاجدينا

وهذه الخاتمة المفحمة القاطعة الأخرى لعلقة عنترة :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر
للحرب دائرة على ابنى ضمضم

الشـــاتمى عرضى ولم أشـــتمهما
والنـــاذرين اذا لم القهمـــا دمى
ان يفعـــلا فلقـــد تركت أباهمـــا
جزر السـباع وكل نسر قشـــعم

وفيها ما فيها من التسلط وقمة الانتقام وسط السطوة على الأعداء، من شاعر يقتل رجلا ثم يستنكر على ولديه أن يقتص له ولو بالشـــتم ويتوعدهما اذلك بهذا الوعيد الذى ترتعد منه فرائص السامعين !

وتلك الخاتمة المثيرة للتساؤل لمعلقة زهير :

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن يكثر التسآل يوما سيحرم

اننى لا أبالغ اذا قررت أن كل خاتمة من هذه الخواتيم هى ظل حياة الشاعر ونفسيته باكملها وبلا نقصان ، كما أنها هى تمام عرضـــه من قصيدته،ومشدودة بحبلمتين مع أبيات القصيدة بأسرها من مطلعها الى منتهاها ، وكثير مما يمكن الكشف عنه من أسرار هـــذه الخواتيم وغيرها سيتجلى خلال هذه الدراسة ، فكيف يسوغ اذا أن نسلم بهذا الفرض الذى ألجأنا اليه النقاد القدماء والمحدثون الذين أهملوا هذا الأمر ؟ وكيف يمكن أن نهمل مسألة كتلك يمكن أن تعود دراستها على القصيدة العربية بفوائد جمة لا يدرك أهميتها الا من عانى فى الدفاع ضد الهجمة الشرسة التى يلاقيها شعرنا اليوم وهو عزل من الســـلاح وعارى الذراعين والصدر يتلقى الطعنات ولا سند له .

لقد وجهت اتهامات كثيرة الى الشعر استهدفت التشكيك فى صحته ، وزعموا أن أكثره مصنوع أو منتحل ، وان اســـتقراء الشـــعر العربى وتتبع مثل هذه الخصائص فيه يمكن أن يوضح الفرق ـــ فنيـــا ـــ بين ما هو أصيل وما هو منتحل ، وانها لدراسة عميقة وممتعة لمن يقـــدم عليها ، أو ليست هذه فائدة من الفوائد ؟

وهناك قصـــائد اختلف فى قائلها ونسبت الى أكثر من شـــاعر ، كقصيدة الفرزدق فى مدح على بن زين العابدين،وأبيات يزيد بن مفرغ فى زياد بن أبيه ، ألا يمكن باستقراء شعر الشاعر تبيين صحة نسبة هذه القصـــيدة من عدمها ، وذلك بتتبع خصـــائص شـــعره ، وخاتمة القصيدة احداها ؛ ، فتلك فائدة أخرى •

وهناك قصـــائد اختلف فى ترتيبها وطولها ، أو عثر عليها مبعثرة فى الكتب وجمعها المجتهدون ورتبوها ، وأشـــهر القصـــائد المختلف فى طولها قصيدة الأعشى اللامية :

ما بكاء الـــكبير بالأطلال وســـؤالى وما ترد سؤالى

وان دراسة خصائص شعر الشاعر لتدلنا مبـــاشرة على الرواية الصـــحيحة للقصـــيدة وعلى طولهـــا وترتيب أبياتهـــا ، وتلك فائدة جليـــــة ثالثـــــة •

وكبرى الفوائد هى ما سبق الاشـــارة اليه وهو ما يتعلق بقضية « الوحدة » فى الشعر مازالت قضية الساعة فى عالمه الى اليوم •

وهناك فوائد أخرى تتعلق بالنقد والدراسة الفنية لشعر الشعراء وذلك بعد استنباط العيوب الفنية والمعنوية التى يمكن أن تلحق بخاتمة القصيدة كالبتر ، وعدم التناسب والاطالة ، والضعف ، والاضطراب، والثقل ، وذلك فى مقابل الخواتيم الجيدة المفعمة أو الشجية ، أو ذات الايقاع الرائع الخلاب ، أو ذات الحجة البالغة وهى أمور تحتـــــاج جميعا الى دراسة متصلة وبحث عميق •

كما أن هناك فوائد تتعلق بالتاريخ الأدبى وذلك بصدد تحـــديد خصائص الشعر فى كل عصر ، وأوجه التشابه والاختلاف والتطـــور التى تطرأ على بناء القصيدة من عصر الى عصر وأثر البيئة والحضارة وطبيعة العصر على هذه البيئة وهذا الاختلاف •

وغاية القول ان دراسة كهذه يمكن أن تعود بفوائد على الدراسة الأدبية ، لسنا نبالغ فى تقديرها ، ولكنها على أقل تقدير لن تكون عديمة الجـــدوى بحال •

لم تلفت خاتمة القصيدة العربية نظرى اليها حديثا ، ولكننى منذ عرفت شيئا اسمه شعر ، وأنا أقفز القصيدة قفزا ، وأتلهف تلهفا الى خاتمتها التى أجد فيها متعة رائعة وعادة ما تكـــون هى المؤثر الذى يجعلنى أقرر رأيا فيها ، وفى صاحبها ، وجعلت أحاول رصد هـــذه الخواتيم الجيدة ، التى تعلق بالذاكرة وتعمـــل فى النفس عملها ، واندفعت أبحث فى كتب الأدب والنقد والبلاغة عما يشفى الغليـــل ويساعد على التعرف على وصف الخواتيم ومزاياها وعيوبها ، ولـــكن أكثر المراجع كانت خلوا من أى اشارة الى شىء من ذلك ، اللهم الا قليلا من كتب المتأخرين من البلاغيين ، أما المتقدمون منهم ومن النقاد أمثال ابن قتيبة وابن المعتز وابن طباطبا وقدامة والآمدى والجرجانيين: عبد العزيز وعبد القاهر فلم يرد فى كتبهم شىء يذكر حـــول هـــذه الخصيصة من خصائص القصيدة العربية ، وأول من تكلم فى هذا كان ابن رشيق فى «العمدة» حيث ذكر شيئا سبق اليه غيره وان لم يشف الغلة ولم يف بالقصد ، وذكر مثل ذلك أســـامة بن منقذ فى كتـــابه « البديع فى نقد الشعر » وذكر أكثر من ذلك ابن حجة الحمـــوى فى خزانته التى كان يتعرض فيها براعته فى البديع ، وأكثر من الشواهد والاسئلة من الشعر والنثر وأغلبها لنفسه وبعض معاصريه ، ولا أحسب أحدا ممن جاءوا بعده قد توسع فى دراسته أو أربى عـــلى ما ذكره • أما البلاغيون المحترفون من أتباع السكاكى « الذى ام يذكر شـــيئا فى مفتاحه عن موضوعنا » فان أشهر من تكلم فى خواتيم القصـــائد منهم الخطيب القزوينى فى الايضاح ولم يزد عن السابقين شيئا •

ويسمى هذا الفن عند هؤلاء العلماء بأسماء مختلفة • فابن رشيق

سماه «الانتهاء» (٢) وتابعه الخطيب فسماه « حسن الانتهاء » وابن حجة سماه « حسن الختام » وذكر أن ابن أبى الأصبع سماه « حسن الخاتمة » وأن التيفاشى سماه « حسن المقطع » (٣) وعنونه أسامة ابن منقذ •• الأواخر والمقاطع •• وأفرد الخطيب عنوانا آخر لبراعة المقطع مثل له بأمثلة غير التى ذكرها احسن الانتهاء (٤) ومصطلح «المقطع» هنا قد يسبب التباسا لما يدل عليه من معان كثيرة متباينة فى الفن الشعرى وفى بناء القصيدة (٥) كما أنه غير دقيق فى دلالته على نهاية القصيدة ، ولا سيما أن التقطع من العيوب التى تروى بالقصيدة (٦) وبعض هؤلاء تكلم عن مقطع البيت ومثل له فى ثنايا كلامه عن مقطع القصيدة (٧) ويبدو أن كل ما ينقطع عنده الكلام يعد مقطعا سواء أكان نهاية بيت أم نهاية مقطع « جزء » من القصيدة أم نهاية القصيدة نفسها ، ولعل هؤلاء العلماء لم يكونوا مخبرين فى تسمية المصطلح لهذا الفن ولكن الباب اتسع أمامنا وعندنا من الأسماء مايغنى عما فيه التباس ولنا عنه مندوحة •

أما هذه الاشارات على قلتها فانها ذات شأن غير هين ، ولقد لمست فيها حسا مرهفا فى اختيار الأمثلة حتى ان بعض ما اخترته قديما

---

(٢) العمدة جـ ١ ص ٢١١ •

(٣) خزانة الأدب ص ٥٦٢ •

(٤) بغية الايضاح جـ ٤ ص ١٥٨ •

(٥) انظر : معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ ـ واستخدمه بالمعنيين معا حازم القرطاجنى فى منهاج البلغاء ص ٢٨٢ ، ٢٨٥ فقد أشار الى استخدام بعض العلماء للمقاطع بمعنى أواخر الأبيات، واستخدام بعضهم لها بمعنى أواخر القصائد • وقد اختار هو هذا الأخير •

(٦) العمدة جـ ١ ص ٢١٢ •

(٧) البديع فى نقد الشعر ص ٢٨٧ •

من الخواتيم الجيدة قد وافق بعض هذه الأمثلة كقول تأبط شرا (٨) •

لتقرعن عـــلى السن من ندم اذا تذكرت يوما بعض أخلاقى(٩)

وقول أبى نواس للخصيب :

وانى جدير اذا باغتـــك بالمنى
وأنت بما أملت منك جـــدير
فان تولنى منك الجميل فأهله
والا فانى عاذر وشكور (١٠)

وان دل هذا على شىء فانما هو وجود هذه الظـــاهرة كمزية للقصيدة العربية ، وفن من فنون البلاغة العربية يدركه الحس الفنى لدى الناقد كأى ظاهرة فنية لها قدرها فى عالمى الفن والنقد •

ان خاتمة القصيدة هى آخر ما يقع فى الأسماع منها ، وهى آخر ما يصل الى الأذهان ، لهذا كان أكثرها عرضة لأن يعلق بالأذهان (١١)، وحسنه يبقى فى النفس فلا يزول أثره ، وقد يجبر ما عساه وقع قبله من التقصير ، أما رداءته فانها تنسى حسن ما قبله (١٢) ، وهو قاعدة القصيدة (١٣) التى تصل بها الى قرارها ، ويعرف بها انتهاؤها وتمام معناها ، والخاتمة فى القصيدة تشترك فى هذا الأمر مع سائر الخواتيم سواء فى الكتابة الفنية أو الكتابة الموضوعية ، ولكن القصيدة العربية بطبيعتها «الذاتية» تحمل شحنة كبيرة من عاطفة الفـــرد الذى هـــو

---

(٨) المرجع السابق • (٩) المفضليات ص ٣١ •
(١٠) الايضاح جـ ٤ ص ١٥٧ ، الخزانة ص ٥٦٨ ، ديوان أبى نواس ص ٤٨٣ •
(١١) الخزانة ص ٥٦٢ •
(١٢) بغية الايضاح جـ ٤ ص ١٥٧ •
(١٣) العمدة جـ ١ ص ٢١١ •

الشاعر ، وهو عادة يجتهد خلال قصيدته فى نقل هذه الشحنات العاطفية من نفسه الى نفوس سامعيه ، فاذا أشرف على الانتهاء من قصيدته ، فانه يشفق أن تبقى أى بقية من تلك الشحنة لا يسعها المقـــام ، أو تضيق عنها اللغة ، ولعله أبقى لهذه المناسبة صورا خاصة ، أو مفردات معينة ، ليطلقها حاملة تلك البقية من عاطفته ، لهذا كله كانت خاتمـة القصيدة العربية منفردة بنوع من التكشف الشعورى ، والحشـــد اللفظى والمعنوى والتصويرى ، وفوق كل هذا فانك لا بد أن تلمح فيها ظلا لحياة الشاعر على تفاوت بين الشعراء فى ذلك •

وهى بطبيعة الغنائية فيها تختلف عن الشعر المسرحى الذى تكشف اللغة فى خاتمته لتحريك أحدث نحو نهاية موضوعية محتمة (١٤) ، وانما هى نبرة عالية من الموسيقى اللفظيـــة ذات الشجى المؤثر أو السخرية المرة ، أو الاستعداد أو الاستعلاء أو الاقحام ، أو الاستعطاف تختلف بين كل هذا باختلاف موضوع القصيدة وغرضها ، فهى لاتحرك حدثا وربما تعرض لحدث ، ولكنها فى الأصل تعرض نفس الشاعر ، وتطبع ما فيها على صفحة نفوس سامعيه •

ولا أدل على هذه الوظيفة الخطيرة لخاتمة القصيدة من خاتمـة معلقة زهير ــ التى أشرت اليها ــ فهذه القصيدة تمثل عمود الشـــعر العربى أصدق تمثيل ، وصاحبها هو الشاعر الذى يمثل طائفـــته من المتكسبين بالشعر أصدق تمثيل أيضا ، وهذان الجناحان : التـــركيب الموضوعى والفنى للقصيدة ، وشخصية الشـــاعر ، طبعا خاتمـــة القصيدة بطابع خاص تفردت به دون غيرها ، ولكن فى الاطار العـــام نفسه الذى يحكم خواتيم القصيد العربى كما سيتبين بعده •

---

(١٤) النقد الأدبى الحديث ص ٧١ ــ ٧٢ •

أما الجناح الذى يتعلق بشخصية الشاعر فأهم محاوره :

- انه شاعر محترف يتكسب بالشعر .
- أنه من عبيد الشعر المنقحين لشعرهم ومن أصحاب الحوليات .
- أنه عاش فى زمن حرب طاحنة أكلت كل ما حوله وكثيرا ممن حوله .
- أنه عاصر ملحمة السلام التى كان بطلاها من ممدوحيه .
- أنه كان مغمورا بأفعال هرم بن سنان ـ أحد المبطاين ـ الى حد أنه كان يستحى أن يسلم عليه لأنه أقسم ألا يسلم عليه زهير الا أعطاه ؛
- أنه سئم من طول الحياة وبلغ من العمر أرذله وحنكته التجارب وزهد الدنيا (١٥) .

وكل هذه الأمور شكلت العنصر الموضوعى لهذه القصيدة وطبعته بطابعها ، وعملت فيه عملها .

أما الجناح الذى يتعلق بالقصيدة ففضلا عن أنها تمثل عمود الشعر العربى أصدق تمثيل ـ كما بينت ـ هى أيضا تمثل حياة الشاعر وعصارة تجاربه على المحاور السابق ذكرها بحذافيرها ، فهى تبدأ بالمعهود عند الشعراء من الغزل والوقوف بالديار وتمثل المحبوبة وصاحباتها ، ثم تنتقل الى الغرض بلا تخلص فتمضى فى مدح بطلى السلام والتنويه بما قاما به من عمل فى المصالحة بين الحسيين المتحاربين وتتحول الى توجيه النصح اليهم بتجنب الحرب وويلاتها ثم تعرض لحادثة عرضت بعد الصلح وكادت تودى به ، لولا حكمة بطلى السلام،

---

(١٥) الشعر والشعراء ص ٥١ .

وما تكبداه فى سبيل اتمام الأمر على خير وجه ، وتصف هذين البطلين بأحسن أوصاف الرجال .

والمدح عند الشعراء عادة ما يتحول عند هذه المرحلة الى التلميح، أو التصريح بطلب المكافأة ، ولكن زهيرا لا يريد ذلك ، وهو يرفض أى مكافأة على التنويه بعمل جليل قام به رجلان تكبدا فى سبيله مالا يقدر غيرهما عليه ، أفلا يكون كريما هو الآخر بأن يقلدهما هذه الدرة ولا يطلب لها ثمنا . فى هذه الحالة يقتضى السياق أن يعتذر عن عدم قبول المكافأة فى الموضع نفسه الذى يخصصه الشعراء للتلميح بالمكافأة ، فكانت أبيات الحكمة المشهورة التى تبدأ بقوله :

سئمت تكاليف الحيـــاة ومن يعش
ثمانين حولا لا أبالك يسـأم

وتنتهى بنهاية المعلقة بالخاتمة المشار اليها وهى قوله :

وان سفاه الشيخ لا حلم بعده
وان الفتى بعـد السـفاهه يحلم
سألنا فأعطيتم وعدنا فعـدتم
ومن يكثر التسآل يوما سيحرم(١٦)

ويبين من هذا النسق الذى ساق الى تلك الخاتمة ، الظل الذى ألقته حياة زهير وعلاقاته ببيئته وقومه وممدوحيه على القصيدة عامة وعلى خاتمتها خاصة .

---

(١٦) خاتمة القصيدة فى أكثر رواياتها وخالف التبريزى ، وجعل البيت السابع والأربعين الى نهاياتها ولم يورد الخاتمة المذكورة على الاطلاق ـ انظر : شرح القصائد العشر للتبريزى ص ١٥٣ وشرح المعلقات للزوزنى ص ١٥٩ ومتن القصائد العشر ص ٢٥ وشرح ديوان زهير ص ٣٢ وابن هنقذ بعد مقطع زهير قوله :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عم

وبعده من أحسن المقاطع ـ البديع فى نقد الشعر ص ٢٨٧ .

أما عنترة الفارس ، الشجاع المضطهد والمبتلى فى حريته وحبه، فانه نظم معلقته فى أعقاب حرب داحس والغبراء مفتخرا فيها بشجاعته وكرمه وحسن بلائه وعفته (١٧) ، فهى صرخة بائس لم تنصفه قوته ولم تحقق له أمنيته ، وهى صرخة ذات نبرة عالية ، مستعلية ، يريد صاحبها بها ــ لو استطاع ــ أن يسمع صوته العبوق ، ويسمعه ظالموه ويسمعه أعداؤه : وعنترة يختم قصيدته بحديث عن ابنى ضمضم المرى اللذين توعداه بالقتل لأنه قتل أباهما وجعلا يسبانه ويشتمانه اذا عرفنا أن حصين بن ضمضم بلغ من حقده على العبسيين لقتل أبيه بيد عنترة ، وأخيه هرم بيد ورد بن حابس العبسى ، أن تخلف عن الصلح الذى قام به الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، ولم يقبل الديةوترصد لورد ليقتله ، فلم يمكنه فقتل رجلا من عبس وكادت الحرب تنشب من جديد (١٨) ، فالحديث عن ابنى ضمضم له أهمية خاصة دفعت عنترة الى أن يختم به معلقته وفخره ووعيده لكل من تسول له نفسه أن يسىء اليه أو الى قومه ، وفى ذلك يقول :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر
للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتمهما
والناذرين اذا لم ألقهما دمى
أن يفعلا فلقد تركت أباهما
جزر السباع وكل نسر قشعم (١٩)

---

(١٧) شرح الزوزنى للمعلقات ص ١٠٦ .
(١٨) شرح التبريزى ص ٢٥١ .
(١٩) القصائد العشر ص٥١ وشرح أبى جعفر النحاس ص٥٣٥ ــ ٥٣٦ ولم يختلف أحد من الرواة على هذه الخاتمة ، الا أن الرواة الجمهرة فيها زيادة كبيرة حيث عدد أبيات القصيدة عند الزوزنى خمسة وسبعون ، =

وقريبة من هذه الخاتمة الزاعقة وتفوقها زعيقا خاتمة معلقـــة عمرو بن كلثوم ، التى تختلف من حيث هى قصيدة «موقف» ، وللموقف مقتضياته ، من جهة المناسبة ، والمنافرة والارتجال ، والانشاد،ويتجلى هذا فى اختياره لأوزن فهى من بحر الوافر ، وهو أصلح البحور للشاعر القوى المتين الكلام ، يعتدل به كلامه ويزول عنه التوعر والتبغض . وهو من أعلى البحور درجة بعد الطويل والبسيط فى صلاحيته للفخر ، وتلك هى الأوزان الفخمة الباهية الرصينة (٢٠) ، أما القافية التى تعد فيها حركة الروى لتصبح حرف خروج (٢١) كألف الاطلاق التى فى هذه القصيدة ، فهى أصلح القوافى للانشاد والترنم بالشـــعر ، كما أن المعانى التى ضمنت خاتمة القصيدة ــ وهى خاتمة طـــويلة ــ بلغت الغاية فى الفخر وجاوزت ما فوق المعقول ، ومثل هذه المعانى الزاعقة فى وجه كل الحقائق لا يختم بها قصيدته الا سيد قومه ، وقاتل الملوك من أجل أن يجلب الرهبة الى النفوس ويدعو الى الحذر من نفسه ومن قـــومه (٢٢) .

ويتناسب طول هذه الخاتمة مع طول القصيدة التى أربت عـــلى مائة بيت فى أكثر رواياتها ، وقد رواها أبو جعفر النحـــاس بروايتين

=

وعنـد التبريزى واحد وثمـانون أما عند أبى زيد فى الجمهرة فهى تقع فى خمسة أبيات ومائة بيت ، أى بزيادة تتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين بيتا منها خمسة أبيات وردت بعد هذه الخاتمة .

(٢٠) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٢٦٦ ــ ٢٦٩ .

(٢١) هو حرف المد الناشىء من اشباع حركة حرف الروى ــ أهدى سبيل الى علمى الخليل ص ١٨٣ .

(٢٢) انظر : صفة عمرو بن كلثوم فى الجمهرة ص ٦٧ ــ ٦٩ .

احداهما فى ثلاثة وتسعين بيتا والأخرى فى اثنين ومائة بيت (٢٣) ، وهى فى الجمهرة فى ستة عشر ومائة بيت آخرها .

لنـــا الدنيا ومن أضحى عليها
ونبطش حين نبطش قادرينـــا
تنادى المصـــعبان وآل بكر
ونادوا يا لكندة أجمعينـــا
فان تغلـــب فغـــــلابون قـــدما
وان تغلب فغير مغابينـــا (٢٤)

وبعض الروايات تختم بقوله :

ألا لا يجهلى أحد علينـــا فنجهل فوق جهل الجاهلينا (٢٥)

وأغلب الظن أن هذا البيت فى ثنايا القصيدة وله مناسبة تنـــاقلها المؤرخون والرواة حوله (٢٦) ، وعليها يكون مكانه قبل البيت الذى بدأ به حديثه الى عمرو بن هند وهو قوله :

بأى مشيئة عمرو بن هنـــد تطبع بنا الوشاة وتزدرينا

كما أن استفتاح البيت «بألا» يدل على أن وراءه حديثا طويلا ، ويبعد عن أن يكون خاتمة لحديثه والذى أميل اليه أن خاتمة الزوزنى الموافقة لرواية أبى جعفر النحاس الطويلة هى الصحيحة وكلتاهما رتبت

---

(٢٣) شرح القصائد التسع للنحاس القسم الثانى ص ٨٣٣ .
(٢٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٧٠ .
(٢٥) التبريزى ص ٢٨٨ .
(٢٦) الجمهرة ص ٦٨ ، الزوزنى ص ١٧٦ .

فيها الخاتمة كالآتى : « اذا ما الملك ــ لنا الدنيا ــ بغاة ظالمين ــ ملأنا البر ــ اذا بلغ » (٢٧) •

والبحث فى مسألة كهذه وتقريرها يحتاج الى دراسة تاريخيـــة وفنية وتحقيق للروايات ولم يحن بعد الحديث فيه ، اذ أن كثـيرا من القصائد العربية اختلف فى روايته وقدم فيه وأخر وحـــذف وزيد ، ولا سيما فى أواخر القصائد ، وهذا يفسح المجال لمثل هذه الدراســة اذا تبناها فريق من المؤرخين والمحققين والنقاد ، وهى لا شك تعود على التراث الشعرى العربى بنفع كثير •

وليست المعلقات فقط هى التى يصدق عليها مقيـاس المؤثرات الداخلية والخارجية ، ولكن ما من قصيدة الا وفيها ظل من ذلك يفتح الباب انا كى نطبق المقياسين التاريخى والفنى على القصيدة فنتوصل الى ما نأمله بشأن خاتمتها ، وادراك مدى تحقق عنصر الوحـــدة فى ســـــائرها •

فعمرو بن معد يكرب مثال الشاعر الفـــارس الذى شـــبيته الحوادث (٢٨) ، وله واحدة من أجمل القصيد فى موسيقاها ووحدتها وعاطفتها يقول فيها :

ليس الجمـــال بمئزر فاعلم وان رديت بردا (٢٩)

ويصف فيها معاركه وأهوالها ، ويبكى من فقدهم من اخـــوانه الفرسان فى الميدان ويختم :

---

(٢٧) القصائد العشر ص ٤٣ والزوزنى والنحاس الصفحات المذكورة آنفـــا •

(٢٨) الشعر والشعراء ص ١٧٧ •

(٢٩) الحماسة ص ٥٧ •

ذهب الـــذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

فهذا البيت على ما يحمله من شحنة عاطفية تبلغ أضعاف طوله ، هو أيضا ملخص لحياته ، والصورة فيه منتزعة من عالمه ومن صفاته.. الشاعر يفقد اخوانه فى الميدان ، وهو فارس مقدام ، وبطل مغوار ، كتب له البقاء بعدهم ، فيشبه نفسه بالسيف ، والصورة على بساطتها لا يملك الانسان ازاءها الا أن يتوقف عن كل تفكير وحركة وتخنقه عبرة كمن يقف دقيقة حدادا على طريقة الغربيين ـ على هؤلاء المفقودين المذكورين ، وتحية للشاعر الذى ام يشغله الفخر عن تذكرهم .

والمنخل اليشكرى الماجن العابث المستهتر،ماذا ينتظر منه أن يختم قصيدته التى يكاد يحفظها كل شداة الأدب وشادياته والتى مطلعها :

ان كنت عاذلتى فسيرى نحو العراق ولا تحورى

وحديثه فيها عن لقاء المحبوبة ، وعن فعل الخمر ، فهى على اختلاف رواياتها اما أن تنتهى بالبيت الطريف :

وأحبها وتحبنى ويحب ناقتها بعيرى

وهى الرواية التى اعتمدها ابن قتيبة (٣٠) وأما أن تنتهى بالختام الطريف الآخر وهو قوله :

فاذا شربت فاننى رب الخورنق والسدير
واذا صحوت فاننى رب الشويهة والبعير(٣١)

---

(٣٠)الشعر والشعراء ص ١٩٤ .
(٣١) الحماسة ص ١٥٢ .

وهى رواية الحماسة ، وهى أقرب الى الصحة من سابقتها ، حيث الغزل متصل من أول القصيدة الى نهايتها مختلطا بالفخر ، ثم جاء دور الخمر ليختمها ، أما رواية الأصمعيات (٣٢) فقد خلطت وقـــدمت وأخرت ، وختمت ببيت من قلب أبيات الغزل بعد أن قطـــع بحديث الخمر ، وهو قوله :

يا هند من لتيم يا هند للعانى الأسير

وبالاضافة الى ذلك فهو لا يصلح خاتمة لشعر هذا الماجن ، فهو قد نال من محبوبته ما يبتغى وأشار الى ذلك فى ثنايا القصيدة ، وبعد ذلك لا يصبح فى حاجة لأن يتضرع اليها هذه الضراعة ، وأنما مـكان الضراعة قبل النوال ، والمنخل أولى الشعراء بأن يختم بطرفة تدل على مدى استبشاره كما ذكرت ، فمثل هذه الطرفة بلا شك تجعل القصيدة أكثر اثارة وامتاعا ، وأكثر تقبلا لدى السامعين ، والطرافة تتحقـق بالاغراب فى الوصف والاتيان بصورة بعيدة عن ادراك غير الشاعر .

وهاتان الخاتمتان كلتاهما تحققان الاغراب المطلوب فى الخاتمة، وأى اغراب أبعد من وصف الشاعر للمفارقة بين حالى سكره وصحوه وشعوره الخيالى فى الأول « رب الخورنق والسدير » ، وحقيقتـه فى الثانية « رب الشويهة والبعير » . وأى اغراب أبعد من قـرب صورة حبه لها ، وحبها له ، بصورة حب كل ما يتصل به لكل ما يتصل بها ، والعكس ، ممثلة فى حب بعيره لناقتها !!

ان هذا ومثله مما عرضنا ، ليؤكد أن للخاتمة فى القصيدة العربية أوصافا كان يتحراها الشعراء ويحرصون عليها لتجويد قصـــائدهم وضمان الرواج والذيوع والتأثير لها ، وعيوبا يتجنبونها خـــوفا أن

---

(٣٢) الأصمعيات ص ٦١ ، وانظر تخريجها وترجيح المحقق للروايات المختلفة وتعقيبه على أبى الفرج ص ٥٨ .

تذهب بهاء شعرهم وتقتله ، لما للخاتمة من أثر فى نفوس السامعين، يعلم هذا الشاعر وجمهوره والنقاد ، وانه لمن الممتع حقا أنه نحاول تتبع هذه المسألة الدقيقة لنظفر بالتعرف على تلك الأوصاف وتلك العيوب ، واضعين بين يدى الناقد مقياسا فنيا أقرب الى الدقة فى قدرته على معرفة الشعر الجيد من الشعر الرديء وأصحاب الشعر فى رحلته الطويلة التى مر بمراحل متعددة تغيرت فيها أحوال الأمم بين صعود وهبوط ، وكان له فيها دوره واسهامه ، كل ذلك وخاتمة القصيدة تخلق ثم تتجدد ، تعلو ثم تتعثر ، ويتفنن فيها الشعراء باضافة عنصر غنائى غريب ، كما فى خرجة الموشح ، أو ببدعة التأريخ التى لازمت القصيدة فى عصر الضعف ، وأمثال هذه الأمور التى تؤكد جميعا على أهمية الخاتمة كعنصر فعال ومؤثر فى القصيدة العربية .

وحيث ان الخاتمة هى آخر ما يبقى فى الأسماع ، وربما حفظت من بين سائر الكلام لقرب العهد بها ، فانها يجب أن تكون مختارة ، وأن تكون فى غاية الجودة ، وأن يتأنق صاحبها فيها غاية التأنق (٣٣)، وأن تكون أحسن من كل ما اندرج فى حشو القصيدة (٣٤) وأن يراعى فيها حسن السبك ، وعذوبة اللفظ وجزالته وقوته والرشاقة والحلاوة، وصحة المعنى (٣٥) ، والصدق فى الوصف ، والاغراب والطرافة ، وأن يؤكد بانتهاء الكلام ويحسن السكوت عليه (٣٦) وهو ما يتم به المعنى، ويكون محكما فلا يزاد عليه ، ولا يأتى بعده أحسن منه (٣٧) وبهذا

---

(٣٣) بغية الايضاح جـ ٤ ص ١٥٧ ، علوم البلاغة : المراغى ص ٢٥٣

(٣٤) منهاج ص ٢٨٥ .

(٣٥) بغية الايضاح جـ ٤ ص ١٤٨ .

(٣٦) بغية الايضاح جـ ٤ ص ١٥٨ ، الخزانة ص ٥٦٢ .

(٣٧) العمدة جـ ١ ص ٢١١ .

توقن النفس بأنه آخر القصيدة (٣٨) ، ولا مفر من تناسبه مع مطلع القصيدة وموضوعها فلا يكون غريبا عنها .

وأجود الخواتيم فى المديح الدعاء ، مع الاحتراز من التأويل (٣٩) وفى الهجاء والمنافرة المفحم والقول والفصل والساخر البين السخرية، وفى الفخر مثل ذلك ويزيد عليه النبرة المستعلية والحجة البالغة وفى الرثاء الشجى والعاطفة ، وفى الغزل كذلك ويزيد عليه خفة الطرب ونشوة المحبين ، وفى الوصف ما كان رائقا ، مع صورة خلابة واغراب لايلحق .

أما المعيب من الخواتيم فهو الذى ينسى سوء حسن ماقبله (٤٠)، بأن يكون كريه الألفاظ ، منفر المعانى (٤١) ، أو يختم فيه بقبيح الدعاء، أو بما يمكن أن يتأول منه ، وقد عد بعضهم الختام بالدعاء من صفات ضعفاء الشعراء ، الا ما كان للملوك ، ومن المعيب ما يقطع والنفس متعلقة به وفيه راغبة واليه مشوقة ، قبل تمام المعنى ، فيبقى الكلام مستورا (٤٢) ومنه ما يستمر ويزاد عليه من حشو الكلام ما لا فائدة فيه بعد تمام المعنى ، فان وقع الشاعر فى شىء من ذلك ، سقط شعره ولو كان من المجودين والموهوبين ، لما للخاتمة من أثر فى النفوس ، وقد تعرف الخاتمة السيئة النفس عن القصيدة صرفا وان حسنت .

والمعانى المتداولة فى ختام القصيدة العربية تدور فى الغالب حول:

ـ الموت وما فى معناه ، وما يدور حوله وما يتعلق به .

---

(٣٨) البديع فى نقد الشعر ص ٢٨٧ .
(٣٩) العمدة ٢١٢ .
(٤٠) بغية الايضاح ج ٤ ص ٥٧ .
(٤١) منهاج البلغاء ص ٢٨٥ .
(٤٢) العمدة ج ١ ص ٢١٢ .

- والزمن والدهر والعمر وما فى معناها ، ويتفـــرع عنها أحاديث الذكريات والمـاضى والأسى عليها ، والمستقبل المنتظر والأمـل فيـه والمبشر •
- والنعيم والرغد وحلاوة العيش ، وما يترتب عليها من الفـــرح والســـعادة •
- والبؤس والشقاء وسوء المصير وما يتعلق بها من الحزن واليأس وما يوحى به •
- والفراق وما يترتب عليه •
- واللقاء كذلك •
- والوعد والوعيد •• وتصاغ هذه المعانى عادة فى أقوال عامة ، تنجو نحو الموضوعية ، ولكنها تتصل بذات الشـاعر وأحاسيسه أوثق اتصال ، وان كانت حكمة أو مثلا سائرا ، ويقعان كثيرا فى الخواتيم ، يهمها الدعاء فى الموضوعات التى تستدعيه كالمـديح والرثاء ، وتمتاز فى ايقاعها بالرنين الأخاذ ، والرشاقة ، والجلال، والابهـــار ، وتوظف فيها الأساليب البـــلاغية المتبـــاينة ويعلوها الغموض الدافع للتأويل والمفارقات اللغوية والمعنوية ، والحركة السريعة ، والتغير المفاجىء ، وذلك لاحداث التـــوتر والانقلاب والمفاجأة وهى من العناصر المؤدية للجدة والغـرابة وشفاء النفوس والموعظة •

وأجود الخواتيم ، تلك التى تحفل بالاشارة وروح المغامرة والتحدى، وروح الفكاهة والتهكم والسخرية الناشئة من تعـــارض الأفعـــال والأقـــوال •

وقد تفنن الشـــعراء قديما وحديثا فى التجويد فى القصيد على هذا الشىء ، وأتوا فيه بغريب المعانى ، ورائق الألفـــاظ ، وعجيب

الأوصاف ، وأتوا بأفانين عجيبة ، واحتالوا بحيل غريبة على ختم كل قصيدة بما يناسبها ، ويطير بسامعها طربا ، وانتصارا لقائلها • وقد تجلى هذا فيما عرضنا من أمثلة وسيتضح بصورة أجلى فيما نعرفه بعد •

وقد كان الجاهليون أقل حظا فى التجويد والتفنن فى الخاتمة ، لا لعدم مقدرتهم عليه ، وانما لأنهم كانوا يجرون وراء الطبع ، ويطلقون لقرائهم العنان ، ولا يدخلون الصنعة الا قليلا ، ومع هذا فان خواتيم القصيد عندهم كانت تجرى على الشرط ولا تخالف عن القصد ، ولا سيما فى جهة الاتصال الموضوعى بسائر القصيدة،وتحقق الغرض ، فى غير تعمل ولا افتعال ، وقد عيب على امرىء القيس ختامه معلقته بهذا البيت :

كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

فلم يجعل لها قاعدة كما فعل غيره من أصحاب المعلقات ، مع أنها أفضلها ، ونرى ابن رشيق يعتذر عنه بأن من العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقة ، وفيها راغبة مشتهية ويبقى الكلام مبتورا ، كأنه لم يتعمد جعله خاتمة ، كل ذلك رغبة منه فى أخذ العفو ، واسقاط الكلفة (٤٣) ، ومن الشعراء من لا يعتنى بالمبدأ ولا بالمقطع فيختم كيفما تيسر له ، ويعتمد هذا من يريد اعفاء خاطره ، أو من يريد أن يظهر أنه لم يعتمد الروية والتنقيح فى كلامه ، وانما أخذ الكلام أخذا اقتضابيا على الصورة التى عن له فيها أولا ، فلا يحفل بالتصريح ولا يبالى بوقوع خرم فى صدر البيت ان وقع له ، ليوهم بذلك أنه أعفى قريحته وأن فى قوته أن يقول أحسن مما قال(٤٤)

---

(٤٣) المرجع السابق •

(٤٤) منهاج البلغاء ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ •

وأصدق مثال على ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص التى رد بها على تهديد امرىء القيس لقومه ، والتى لم يصرع مطلعها وأطلقه كالحديث العابر هكذا :

يا ذا المخوفنا بقتل م أبيه اذلالا وحينا
أزعمت أنك قتلت سراتنا كذبا ومينا

وتجىء خاتمتها أيضا بلا عناية ولا تنقيح هكذا :

حتى تركنا شلوه
جزر السباع وقد مضينا
انا لعمرك لا يضا
م حليفنا أبدا لدينا
واوانس مثل الدمى
حور العيون قد استبينا (٤٥)

ولكن هذا لا يطرد عند سائر الشعراء ، وانما امرؤ القيس من قلة من الشعراء كانوا يفعلون ذلك ، علاوة على أنه من السابقين الأولين منهم الذين لم تكن القصيدة على زمنهم قد بلغت أوجها من الناحية الفنية ، وكفاه وصفا أنه أول من قصد القصيد ، ومعاصره عبيد يصدق على شعره مثل ذلك ، علاوة على أن قصيدته هذه قصيدة موقف وأغلب الظن أنها مرتجلة والموقف الذى قيلت فيه لا يحتمل الروية والتنقيح ، فيصدق عليها حكم حازم القرطاجنى السابق (٤٦) .

---

(٤٥) ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٣٥ ، الأغانى جـ ١٩ ص ٨٥ ، الشعر والشعراء ص ١١٩ .

(٤٦) قد يصدق هذا على شعر المتقدمين وأقربه قصيدة عبيد المعلقة (أقفر من أهله ملحوب) فخاتمتها مبتورة أيضا وعلى عمرو بن قميئة صاحب امرىء القيس أيضا .

ان روح الفن العالى لتسرى فى هذا الشعر فتشده آنا الى روح الاثارة والمفاخرة وآنا الى التوتر ، وآنا الى التهكم والسخرية وروح الفكاهة ، أو الغموض الدافع الى التأويل أو الى الجـــدة والغـرابة والابهار ، أو الرشاقة ، وكل هذا ينعكس حتما على خاتمةالقصيدةالتى تتناسب مع موضوع القصيدة ، وتشدها اليه رابطة محكمة من الوحدة بجميع أشكالها فلا نرى فى الخاتمة الا المخرج الطبيعى والشـــهامة الحتمية لموضوع القصيدة ، وهى تؤدى تلك الوظيفة بجميع مكوناتها المعنوية ، واللفظيه والتصويرية والموسيقية ، وعلاوة على هـذا فهى ــ كما بينت آنفا ــ ظل لحياة الشاعر لا ينفصل عنه بحال ، وقد كان الشاعر ــ أى شاعر ــ فى زمن الجاهلية يحرص على أن يضع فى شعره عصارة عاطفته وتجربته الحياتية ، فى صورة تجربة شعرية تنضح بكل المعانى التى ترتسم فى البيئة ونفس الشاعر ، فتجربة شـاعر كذى الأصبع العدوانى مع قومه الذين تفانوا فى حرب ضروس بسببالمعاندة والاصرار على الثأر ، وسعيه بينهم بالصلح وفشله فى ذلك ، طبعت سائر شعره بمرارة لم تغادر منه حتى تهكمه وسخريته فنراه فى نونيته المشهورة التى مطلعها :

يا من لقلب شديد الهم محـــزون أمسى تذكر ريا أم هـــارون

يفتتح بشىء من الغـــزل ، ثم يسرد بينه وبين ابن عم له كان يتدسس الى مكارهه ، ويشى به الى أعدائه ، ويسسعى بينه وبين بنى عمه ، وبيغيه عندهم شرا ، فنراه يسرد ذلك فى تهكم هادىء عجيب ، معتزا برعايته لأواصر القرابة مع هذا الخلاف المستعر ، ثم يتهـــدده ان لم يكف سعيه ، ويفخر عليه بشعبه وبآبائه فى مبالغة ظاهـــرة ، ويتباهى بعفة نفسه ولسانه وكرمه وحسن رأيه ثم بصبره فى الحروب واحتمال الجراحات ، وتغلبه على الخصوم ، ثم أعرب عن طيب نفسه

واستعداده للمهادنة ، ويختم بعد دعوة ابن عمه الى الملاينة والمصالحة ويتهدده بتعريض فيه اغراب جيد فى تصويره (٤٧) :

يا عمرو لو لفت لى ألفيتنى يسرا
سمحا كريما أجازى من يجازينى
والله لو كرهت كفى مصاحبتى
لقلت اذ كرهت قربى لها : بينى(٤٨)

ولا شك أن الشاعر وفق الى هذا التمثيل الطريف لعلاقته بابن عمه بكفه التى لا يتردد فى قطعها اذا كرهت مصاحبته ولا يبالى ، فهو لم يترك مجالا لكلام يقال أو يتمم به على ما أورد ، وهذا راجع الى تلك الحدة المفاجئة التى نشأت عن المفارقة فى التصوير ، وغرابة هذا التصوير .

وما أشبه تلك الخاتمة بخاتمة تائية الشنفرى الصعلوك الفاتك التى صور فيها ملوك الصعاليك وفلسفة حياتهم وآلامهم ، واحساسهم المر بالاضطهاد وغزواتهم (٤٩) ، وهو مبدأ القصيدة بالعزل والتشبيب ويبدع فى وصف صاحبته ومحاسنها ، ثم يتحول الى تأبط شرا أستاذه ورفيق غزواته ، ويصف السيف ، وفتكه بقاتل أبيه ، ويصف استهانته بالحياة ويفخر بنفسه ، ويختم بأنه يجازى الخير بمثله والشر كذاك (٥٠) .

وانى لحلو أن أريدت حلاوتى
ومر اذا نفس العزوف استمرت

---

(٤٧) المفضليات ص ١٥٩ (هـ) .
(٤٨) نفسه ص ١٦٤ .
(٤٩) الطرائف الأدبية ص ٢٧ .
(٥٠) المفضليات ص ١٠٨ (هـ) .

أبى لمـــا آبى سريع مبـــاءتى
الى كل نفس تنتحى فى مسرتى (٥١)

وليس صعبا أن تدرك العدالة التى تحراها مع حسن التقســيم فى توزيع الحلاوة والمرارة مع الاباء والمسرة ، حتى وان اعتـــرض معترض بأن المطابقة هنا ليست تامة فى البيت الأخـــير ولكن النفس توقن أن الشاعر قد أوفى على تمام قصيدته ووضع كل شىء فى نصابه.

وشبيه بهما ما قاله المثقب العبدى فى ختام نونيته مخاطبا عمرو ابن هند ، وهى النونية التى مطلعها :

أفاطم قبل بينـــك متعينى ومنعك ما سألت كان تبينى

وهى ليست مدحا كالشعر الذى يتوجه به الى الملوك عادة ، ولكن أكثرها فى الغزل ونعت النساء الظاعنات ، وهو من أمتع ما قيـــل فى ذلك ، ووصف للناقة بالشدة والسرعة والضخامة ورحاته عليها وقـــد كانت شاقة ، حتى بلغ عمرو بن هند وقد أشرفت القصيدة على النهاية، فنجده يخاطبه مخاطبة شديدة جعلت الأصمعى يشك قائلا : « أراه غير الملك لأنه لم يكن ليخاطبه بمثل هذا الكلام (٥٢) ثم يختم بتعبـــير صادق عن جهله بما يخبىء له القدر من الخير والشر :

الى عمرو ومن عمـــرو أتتنى
أخى النجدات والحلم الرصين
فاما أن تكون أخى بحـــق
فأعـــــرف منك غثى أو ثمينى

---

(٥١) نفسه ص ١١٢ .
(٥٢) المفضليات ص ٦٨٧ (هـ) ، ص ٢٩٢ (هـ)

والا فاطـرحنى واتخـذنى
عـــدوا أتقيـك وتتقينى
وما أدرى اذا يممت أمرا
أريد الخـــير أيهما يلينى
أألخـير الذى أنا أبتغيـه
أم الشر الذىهو يبتغينى (٥٢)

وهذه الخواتيم جميعا فى تناسبها مع موضوع القصيدة ، وترتبها عليها ، ثم ما تزخر به من مقومات الخاتمة لفظا ومعنى ، وموسـيقى وتصويرا ، هى صررة للخاتمة الجاهلية الساذجة ، التى تجرى مـع فطرة الشاعر وطبعه بلا تنعيق ولا صنعة ، اللهم الا الحرص عـــلى أن تكون متممة للموضوع وهى الخاصة التى افتقرت لها خاتمة امرىء القيس ومعـــاصريه .

والخاتمة الواحدة قد تصبح اتجاها أو منحى ينحوه عـــدد من الشعراء فى قصائدهم كما تبين ، ولا سيما اذا تقاربت موضـــوعاتهم واتحد غرضهم ، فشعر الفخر كقصيدة عنترة المعلقة التى استعرضنا خاتمتها التى يذكر فيها الشاعر بقتله بعض أعدائه ، لها نظـــائر فى معناها وبعضها يكاد يكررها لا يفترق الا فى اسم القتيل الذى يبـاهى بقتله ، فجابر بن حنى التغلبى يفتخر ببلائه وقومه فى يوم الـــكلاب الأول ، ويختم بقـوله :

وعمرو بن غلام متعنا جبينه
بشنعاء تشفى صورة المتظلم

---

(٥٢) نفسه ص ٢٩٢ .

يرى الناس منا جلد أسود سالخ
وفروة ضرغام من الأسد ضيغم(٥٣)

والحصين بن حمام المرى يفخر ببلائه فى يوم «دارة موضوع» ويختم :

ولكن خذونى أى يوم قدرتم
على فحزوا الرأس أن أتكلما
بأية أنى قد فجعت بفارس
اذا عرد الأقوام أقدم معلما (٥٤)

وثعلبة بن عمرو يفتخر على أعدائه بما أصابهم من جراحات أورثهم ذلا ويختم :

فتبعته طعنة ثرة
يسيل على الوجه منها صبيب
فان قتلته فلم آله
وان ينج منها فجرح رغيب
وان ياقنى بعدها يلقنى
عليه من الذل ثوب قشيب(٥٥)

وشبه بتلك الخاتمة ، أخرى لرجل من عبد القيس يذكر قتله أبا صخر بن عمرو القينى فى يوم ذات الرمث ، ويقول فيها :

شككت مجامع الأوصال منه
بنافذ على دهش وذعر
تركت الرمح يبرق فى صلاه
كأن سنانه خرطوم نسر

---

(٥٣) المفضليات ص ٢١٢ ٠ (٥٤) نفسه ص ٦٩ ٠
(٥٥) نفسه ص ٢٥٤

فان يبـــــرأ فلم أنفث عليـــه
وان يهلك فذلك كان قــدرى (٥٦)

ومن طريف خواتيم هذا الباب ما ختم به الأشعر الجعفى قصيدته المقصورة التى يهجو فيها بنى أبيه ، الذين رضوا بديته عندما قتـــل ولم يثأروا له ، وسمنوا أمهم وزوجوها .

أما أمه فقد أقامت على هزالها تعد الخيل ليوم الثأر عندما يكبر هو ، وقد فعل ، وبهذا يصيرهم ويفخر عليهم (٥٧) ، وقد ختم قصيدته بمقطع يصف فيه فعله برئيس القوم الذى جند له وسط جموعه ولم يتركه حتى كانت الخيل تلعب بجثته بسنابكها لعبة « دحروج الوليد » وهو لا يكتفى بهذه الصورة الطريفة بل يضيف اليها بعض التـــوابل والمشهيات ليشد سامعه أكثر ، فيستوقفه ليسأله : فماذا جرى ؟ وكأنه يشهد معه فعله ويشهد على شجاعته ، ويؤكد أن هذا الرئيس قتل ، وأنه استشفى بقتله ، وكان أمنية حياته ، ولا يعبأ بعد ذلك أن يزوره الموت ، وقد تحقق له ما أمل :

ومرأس أقعدت وسط جموعه
وعشار راع قد أخذت فما ترى ؟
ظلت ســـنابكها على جثمانه
يلعبن دحروج الوايد وقد قضى
ولقـــد ثأرت دماءنا من واتر
فاليوم ان زار المنون قد اكتفى (٥٨)

---

(٥٦) نفسه ص ٧٠
(٥٧) الأصمعيات ص ١٤٠ .
(٥٨) الأصمعيات ص ١٤٣ .

ويلاحظ أن ألفاظ البيت الأخير تلعب دورا كبيرا فى الايحاء بتمام القصيدة واضفاء الشجى عليها ، ولا سيما ذكر الموت الذى هو مجلبة للشجن ، ويتناسب مع الخاتمة لأنه مؤذن بنهاية لا يختلف عليها اثنان، ولهذا نرى ذكره يغلب على خاتمة القصيدة المحكمة قرب ظهور الاسلام، وأول عصره حتى ولو لم يكن ذا علاقة مباشرة بموضوع القصيدة ، فعمرو بن معد يكرب فى فخره المذكور آنفا يختم بذكر الموت ، والمخبل السعدى (٥٩) فى ميميته التى يذكر فيها محبوبته وديارها ، وصف الطريق وناقته التى اجتاز عليها ، وأنحى على عاذلته فى كرمه وانفاقه واحتج بأن الخلود فى البذل لا الشراء وختم بأن المنية هى غاية كل حى :

ولئن بنيت لى المشقر فى
هضب تقصر دونه العصم
لتنقبن عنى المنية ان
ن الله ليس كحكمه حكم
انى وجدت الأمر أرشده
تقوى الاله وشره الاثم (٦٠)

وعبدة بن الطبيب يوصى أولاده فى عينيته ويختم (٦١) :

ان الحوادث يخترمن وانما
عمر الفتى فى أمره مستودع
يسعى ويجمع جاهدا مستهترا
جدا ، وليس بآكل ما يجمع

---

(٥٩) مخضرم ـ انظر المفضليات ص ١١٣ .
(٦٠) المفضليات ص ١١٨ .
(٦١) المفضليات ص ١٤٥ ـ ١٤٨ وهو من المخضرمين ـ انظر ص ١٣٤ .

حتى اذا وافى الحمام لوقتــه
ولكل جنب لا محالة مصرع
نبذوا اليه بالسلام فلم يجب
أحدا ، وصم عن الدعاء الأسمع

ومتمم بن نويرة فى عينيته هو أيضا ، يبدأ بعتاب خليلته عــلى القطيعة ثم يعرج على وصف ناقته وفرسه ، ويتحدث عن الشـــراب والندمان ، ثم وصف مغامرته مع الضبع وكيف لاقاها ، واستطرد الى وصف سيفه ، ثم عرج على الدهر وريبه ، وما أفنى من الأمم والأرهاط ثم ختم بالموت (٦٢) ختاما رائعا :

فعددت آبائى الى عرق الثرى
فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا
ذهبــوا فلم أدركهم ودعتهم
غول أتوها والطريق المهيـــع
لا بد من تلف مصيب فانتظر
أبأرض قومك أم بأخــرى تصرع
وليأتين عليـــــك يوم مرة
يبكى عليك مقنعا لا تسمع(٦٣)

والى جانب الموت هناك مثيرات أخرى للشــجى كثر ورودها فى خواتيم القصائد فى العصر الاسلامى ، حيث مالت هذه الخواتيم الى اللين ورقت ، واتضح أثر المفهومات الجديدة والحياة الجــديدة التى انتقل اليها المجتمع العربى بعد هذا الحدث ، غير أن الشعراء لم يفيدوا من القرآن الكريم ، وهو المثل الأعلى للأدب ، ولم يفيدوا من خواتيمه التى بلغت غاية الغايات فى حسن الختام ، ووردت على أحســن وجوه

(٦٢) نفسه ص ٤٨ (٦٣) نفسه ص ٥٤ .

البلاغة (٦٤) ولهذا فاننا لا نمح تغيرا يذكر فى الألفاظ والصـــور فى المرحلة التالية حيث ان البيئة واللغة ظلا على حالهما حتى عصر الفتوح، فالربع ، والاطلال الدوارس ، والناقة ، والفرس والمفوز المحرقة ، ومدافع السيل ، وصيد الوحش وغيرهما مما يصفه الشاعر الجـاهلى بقى على حاله فى شعره ، لكنه استغل استغلالا جديدا فى التصوير ، وظهرت جوانب منه لم تكن مما يشيع اظهاره من قبل ، وفارس فاتك كعمرو بن معد يكرب يختم قصيدة له فى تذكر قصة له مع امرأة تزوجها، ويعرج فيها على الصيد ، ويذكر الشيب ، وحوادث الزمان ، وأهوال الحروب التى خاضها ، ورحلات الصحراء ، ثم يختم بشكوى وجـده وألمه لفراق الأحباء فى صورة جميلة (٦٥) ، شجية مؤثرة ، مستمدة من واقع البيئة ، حيث يصور وجده بأنه أشد من وجد عدة من الابل وحزنها لفقد أولادها ، ونراه يعمل على تشويق سامعه لزيادة تأثير الصورة فيه بتقديم صورة الابل على الصورة الخاصة به عمدا ليختم بها :

لعمـرك مـائلات حائمـــات
عـلى ربـع يـرعن وما يريـع
وشاب ما يعيش لهـــا حـوار
شـديد الطعـن مثكـال جزوع
سديس نضـجته بعـــد حمـل
تحـرى فى الحنـين وتسـتليع
بأوجـع لوعـة منى ووجـــدا
غداة تحمل الأنس الجميع (٦٦)

---

(٦٤) الايضاح جـ ٤ ص ١٥٩ ، الخزانة ص ٥٦٢ .
(٦٥) الأصمعيات ص ١٧٢ .
(٦٦) نفسه ص ١٧٦ ، وأتى ببيت فى صفة الفرس بعد هذه الأبيات

ومثلها أخرى لضابىء بن الحارث وهو مخضرم أيضا ، يصف فيها الأطلال والديار والرحلة ، والناقة التى شبهها بالفحل والظليم والثور، ثم استطرد من الثور الى وصف صائد معه كلابه يصيد ثورا ، ولكن الثور يدافع عن نفسه ، ويكر على الكلاب فى ثورة عارمة ، فيصرعها جميعا ، وينجو عزيزا ظافرا (٦٧) :

وآب عزيز النفس مانع لحمه اذا ما أراد البعد منها تمهلا (٦٨)

وعلى الرغم من أن ضابئا لم يذكر ما أصاب الصياد من خيبة الأمل اذ أفلت الثور منه ، وفقد كلابه ، فلم يشأ الشعر أن يحرمنا صورة رائعة تكمل هذا النقص لشاعر اسلامى آخر هو المزرد بن ضرار الذبيانى فى لاميته الطويلة ، فى الفخر ، التى ختمها بقصة صياد يفشل فى قنص شىء ، فيعود حزينا جائعا ، الى بيت كله جياع فلم يجد النوم الى جفنيه سبيلا (٦٩) :

فقال لها هل من طعام فاننى
أذم اليك الناس ، أمك هابل
فقالت : نعم هذا الطوى وماؤه
ومحترق من حائل ، الجلد قاحل
فلما تناهت نفسه من طعامه
وأمسى طليحا ما يعانيه باطل

=

وواضح أن مكانه فى ثنايا القصيدة من الأبيات (١٣ ، ٢٠) فى وصف الفرس والصيد ، واسقاط بيت من القصيدة ثم استدراكه كثير عند الرواة وهو من المشكلات التى تعالجها هذه الدراسة .

(٦٧) الأصمعيات ص ١٧٩ .

(٦٨) نفسه ص ١٨٣ (٦٩) المفضليات ص ٩٣ .

تغشى يريد النـــوم فضـــل ردائه
فأعيا على العين الرقاد البلابل (٧٠)

ومع تقدم الحياة بالشعر فى عصر الاسلام زادت هذه الخواتيم رقة وتصرف الشعراء فيها أكثر وأدخلوا معانى جديدة زادت الخاتمة حلاوة ، وشجى ، مثل هذا الختام لطويلة المرار بن منقذ فى الفخـــر ، وهو شاعر أموى :

يســـأل النـــــاس : أحمى داؤه
أم به كان ســـــــلال مستسر ؟
وهى دائى ، وشـــفائى عنـــدها
منعتـــه فهـــــو ملـــــوى عسر
وهـــى لو يقتلهـــا بى اخـــوتى
أدرك الطـــــالب منهم وظفـــــر
ما أنا الدهر بنـــــاس ذكـــــرها
ما غدت ورقاء تدعو ساق حر (٧١)

وقد أصبح للخاتمة شأن عند شعراء بنى أمية ، جعلهم يقتنصون لها المعانى التى تفوق فى اغرابها كل ما ورد فى القصيدة ، ويؤخـــرونه عمدا ليكون كالمفاجأة أو كالصاعقة ولاسيما فى الهجاء الذى استشرى فى صورة نقائض وغيرها ، وكان محور هذه الحركة جرير الذى هاجاه ثمانون شاعرا فغلبهم جميعا غير الأخطل والفرزدق ، وكان أقسى هجاء صبه جرير على شاعر من هؤلاء هو ما قاله فى الراعى النميرى ، الـــذى انضم الى الفرزدق فى هجاء جرير ، فاعذر اليه جرير وأمهله ، ولكنـــه لم يعتذر وأهان ابنه جريرا وألقاه أرضا على مشهد منه ، فما كان من

---

(٧٠) نفسه ص ١٠٢ .
(٧١) المفضليات ٩٣ .

جرير الا أن اختلى ليلته وظل يعالج القوافى ، فما زال كذلك حتى كان السحر ، ثم اذا هو يكبر قد قالها ثمانين بيتا فى بنى نمير ، فلما ختمها بقـــوله :

فغض الطـرف انك من نمـير فلا كعبـا بلغت ولا كـلابا

كبر ثم قال : أخزيته ورب الكعبة ! (٧٢)

ومثل هذه الخواتيم فى شعر الهجاء نسميها « المفحمـة » ، ولم لا تسمى كذلك وقد أسقطت الراعى وقبيلته ، ولم يلبث أن مات بعدها كمـدا ؟!

ومع هذا فقد شهد هذا العصر شعرا مطبوعا رقيقا تسيل خواتيمه سلاسة وتقطر رقة وعذوبة ، لم يزايلها الطبع البدوى وصدق العاطفة وسلامة التصوير ودقته ، فقد كان من الشعراء جماعة لم تؤثر فيهم حياة الحضر وترفها وزيفها وتعقيداتها ، وبقيت لغتهم على طابعهـــا البدوى الذى لم يشوه بمولد ولا دخيل ، ومن هؤلاء الصمة بن عبد الله القشيرى ، وهو شاعر بدوى أموى مقل ، وله عينيـــة منتثرة فى كتب الأدب ، جمعها عبد العزيز الميمنى فى مجموعة (الطرائف الأدبية) ولم يحالفه التوفيق فى استخراج مطلع القصيدة من بين أبياتها الستين التى بين يديه ، وهو فى ثناياها ظاهر للقارىء ولكنه وفق الى أســتخراج خاتمتها ووضعها فى موضعها ، مما أثار عجبى منه ، أو أن الحـــاسة

---

(٧٢) الأغانى ط الشـعب جـ ٨ ص ٢٧٧٦ وانظر : بروكلمان جـ ١ ص ٢١٧ والعمـدة جـ ١ ص ٣٦ وديوان جـرير ص ٧٥ ، وديوان الراعى ص (ك) المقدمة ، ص ١٧ . والقصيدة فى الديوان تزيد على مائة بيت وهذا البيت هو التاسع والسبعون ويبدو أن جرير زاد فيها بعد ذلك .

الراقية التى تستخرج خاتمة القصيدة ، لا يصعب عليها التقاط المطلع وهو أظهر وأبين (٧٣) .

وهذه القصيدة كلها فى وصف مرابع الحبيبة وظعنها ، ونعتها ، ومشاعره نحوها يوم الفراق ، والبكاء والشكوى بسبب ما يلاقيه من الألم فى حياته بسبب فراق المحبوبة وتباريح الشوق والوجد بنفسه، ودعاء لها ، ثم ختمت القصيدة بهذه الشكوى :

سـلام على الدنيا فما هى راحة
اذا لم يكن شـملى وشملكم معا
ولا مرحبـا بالربع لسـتم حلوله
ولو كان مخضل الجوانب ممرعا
فماء بلا مرعى ومرعى بغـير ماء
وحيث أرى ماء ومرعى فمسـبعا
لعمرى لقد نادى منادى فراقنـا
بتشتيتنا فى كل واد فأسـمعا
كأنا خلقنا للنـوى وكأنمـا
حرام على الأيام أن نتجمعا (٧٤)

وقد طفق الشعراء المجددون من المولدين فى العصر العباسى يجددون فى الخواتيم ويتفننون فيها ولاسيما بشار ومسلم بن الوليد وأبو تمام والبحترى ، ولكن الذى فاق جميع هؤلاء هو أبو نواس رائد المجددين والثائرين على التقليد فى الشعر ، وقد عد البلاغيون ختـام رائيته فى مدح الخصيب من أجود الخواتيم وأكثرها توفيقا كما قدمنا ، ولا يقل عنها جودة ختام قصيدته الميمية ، فى مدح الأمين حيث يقول:

---

(٧٣) الطرائف الأدبية ص ٧٦ .
(٧٤) المرجع نفسه ص ٨٠ .

داوى به الله القلـــوب من العمى
حتى افقـــن وما بهـــن ســـــقام
أصبحت يا ابن زبيدة ابنة جعفـــر
أملا لعقـــد حبـــاله اســـــتحكام
فسلمت للأمـــر الذى ترجى لـــه
وتقاعست عن يومك الأيام (٧٥)

وأبو نواس هو أول من ضمن بيتا من شعر غيره فى خاتمة شعره حكاية له ، وكان السبق على هذا ينسب الى صفى الدين الحلى (٧٦)، ولكنى وجدت هذا التضمين من شعر الحطيئة فى خمرية من خمريات أبى نواس مطلعها :

وقهـــوة عتقت فى دير شـــماس تفتر فى كأسها عن ضوء مقباس

وختامها قوله (٧٧) :

يديرها هاشمى الطرف ، معتدل
أبهى اذا ما مشى من طاقة الآسى
حث المـــدام وغنـــانا على طرب
«الآن طاب الهوى يا معشر الناس»
حتى اذا ظن أنى غـــير محتمـــل
أشار نحوى لأمر بين جـــلاسى
فقلت أضرب فى معروفه مثلا
لعـــادة قد مضت منى الى الآسى:

---

(٧٥) ديوان أبى نواس ص ٤٠٧ . وقد عده الخطيب القزوينى من الانتهاءات المرضية الايضاح جـ ٤ ص ١٥٧ .
(٧٦) معجم مصطلحات الأدب واللغة .
(٧٧) معجم مصطلحات الأدب واللغة .

من يفعل الخـــير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس (٧٨)

وهذا البيت الاخير من قصيدة الحطيئـــة فى هجاء الزبرقان بن بدر (٧٩) ، وهو تضمين مليح ولكنه بدائى ، وقد فتح الباب به لمـــن بعده من شعراء الصنعة ، وأصبح هذا التضمين أساسا فى خرجـــة الموشح ، سواء أكان المضمن شعرا أو غناء أو موالا أو مثلا سائرا .

وبلغت الصنعة بعد ذلك بالشعر حدا جعلهم يؤرخون للأحـــداث التى قيلت فيها القصائد فى البيت الأخير منها .

وقد بدأ التكلف فى الخواتيم على يد شعراء الصـــنعة فى توظيف أنواع البديع واقتناص الصور للخاتمة ، فمنهم من أجاد ومنهم من لم يحالفه التوفيق ، بسبب المبالغة المقيتة والاغراق فى التكلف ، ومن هؤلاء ابن هانىء الاندلسى شاعر المعز والذى مدحه بما لا نظير له فى دنيـــا المسلمين أو الكافرين ، وذلك بقوله :

ما شئت لاما شـــاءت الأقدار فأحكم فأنت الواحد القهار

وهى قصيدة كلها مبالغات ، ولم يخل ختامها منها يقول :

شرفت بك الآفاق وانقسمت بك الأر
زاق والآجـــــال والأعمـــــار
عطرت بك الافواه اذ عذبت لك الـــ
أمواه ، حين صـــفت لك الأكـــدار
جلت صـــفاتك أن تحـــد بمقـــول
ما يصـــنع المصـــداق والمكثـــار

---

(٧٨) ديوان أبى نواس ص ٧٥ .
(٧٩) ديوان الحطيئة ص ٢٨٤

والله خصـــك بالقران وفضـــله
وأخجلنى ما تبلـغ الأشـعار (٨٠)

فبعد كل هذه المبالغات السمجة يعتذر الشاعر للخليفة الفاطمى عن عدم وفائه حقه من الوصف والمديح ، وعذره أن الشعر مهما بلغ ، فلن يكون شيئا اذا قيس بالقرآن الكريم ، الذى يدعى أن الله تعالى خص به هذا الخليفة !

واستاذ ابن هانىء ــ الذى كان يسمى متنبى المغرب ــ فى هـذا هو أبو الطيب المتنبى الذى فتن المشارقة ببديهته الحاضرة وصوره الخلابة ومعانيه الحكيمة حتى لا تكاد تخلو قصيدة له من عـدة من الأقوال التى تجرى مجرى الأمثال أو الحكم ، ولكن العيب الجوهرى فى شعره هو انعدام الترابط بين أجزائه ، وضعف الرابطة بين أبياته ولهذا فخواتيم شعره لا تختلف عن كثير مما فى ثنايا شعره من أبيات، وأكثر قصائده يختمها بالبيت الواحد ، وهو يميل الى الاتيان بقول عام يطلقه فى صورة حكمة عمدا لسيرورته كذلك ، مهما كان موضـوع القصيدة ، أو صورة غريبة ، أو مفارقة ذكية ، أو طرفة نادرة أو مبالغة فاقعة ، ولذلك كثر سقوطه وأتى بأشياء كان تركها أولى به ، وأشعر له ، وانما أدخله فيه حب الاغراب فى باب التوليد (٨١) كقوله :

أحبك أو يقولوا جرشما تبيرا وابن ابراهيم ريعا (٨٢)

---

(٨٠) ديوان ابن هانىء الأندلسى ص ٧٦ ــ ٨٣ .

(٨١) العمدة جـ ١ ص ٢١١ .

(٨٢) ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٦٣٥ وهو والتالى له من أمثلة التخلص عند ابن رشيق وليس خاتمة ، أما سائر ما بعدهما فهو من مختارنا لأمثلة خواتيم المتنبى .

فهذا من البشاعة والشناعة بحيث لا يخفى على أحد (٨٣) ، وهو يبلغ الغاية فى التكلف والتصنيع أحيانا كقوله :

أعز مكان فى الدنيا سرج سابح وخير جليس فى الزمان كتاب
وبحر أبو المسك الذى له على كل بحر زخرة وعباب

يريد : وخير بحر أبو المسك (٨٤) .

وفهم مذهب أبى الطيب ـ وهو امام مدرسة ـ فى ختم شعره يقتضينا أن نستعرض بعضا من خواتيم شعره ، ليتبين لنا مدى حرصه على التجويد ، ولو على حساب ترابط المعانى العامة فى القصائد. ونعرف غرامه بالاغراب والمبالغة ، والتظاهر بالحكمة .

فمن طريف هجائه ما ختم به ذمه الأعور بن كروس :

فلو كنت امرأ يهجى هجونا ولكن ضاق فتر عن مسير (٨٥)

فهذا تشبيه ضمنى جيد وطريف ، أصاب به أبو الطيب كبد الهجو .

ومن رائق تصويره وحسن اختيار ألفاظه قوله :

كأن السمانى اذا ما رأتك تصيدها تشتهى أن تصادا (٨٦)

ومن دعائه لسيف الدولة ، ما عده ابن حجة من حسن الختام وهو قوله :

فلا حطت لك الهيجاء سرجا ولا ذاقت لك الدنيا فراقا (٨٧)

---

(٨٣) العمدة جـ ١ ص ٢١١ ، ديوان المتنبى جـ ١ ص ٣١٨ .
(٨٤) العمدة جـ ١ ص ٢١٢ .
(٨٥) ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٢٤٥ البرقوقى .
(٨٦) نفسه جـ ٢ ص ١١٣ .
(٨٧) ديوان المتنبى ـ اليازجى ـ جـ ٢ ص ٥٧ ، خزانة الأدب ص٥٦٨

ومن مبالغاته قوله مفتخرا :

أنا ترب الندى ورب القوافى وسهام العدى وغيظ الحسود (٨٨)
أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود (٨٨)

ومنها قوله مادحا :

يغنى الكلام ولا يحيط بفضلكم أيحيط ما يغنى بما لا ينفد (٨٩)

ومنها :

فلقد دهشت لما فعلت ودونه ما يدهش الملك الحفيظ الكاتبا (٩٠)

ومنها :

ألا كل سمح غيرك اليوم باطل وكل مديح فى سواك مضيع (٩١)

ومن افراطه فى التصوير قوله فى ختام مديح لسيف الدولة :

فقد يظن شجاعا من به خرق
وقد يظن جبانا من به زمع
ان السلاح جميع الناس تحمله
وليس كل ذوات المخلب السبع (٩٢)

وهو يرمى الى أن تتحول كل صورة من الصور الأربع السابقة الى مأثور من القول وهو يكثر من هذه الصور والأقوال العامة فى شعره ولا سيما فى الخواتيم ، وقد تكون الصورة التى يأتى بها قريبة أو حتى مبتذلة ولكنه يجهد ويتعب نفسه فى الاغراب فيها والتجديد كقوله :

---

(٨٨) ديوان المتنبى ـ البرقوقى ـ جـ ٢ ص ٣٨ .
(٨٩) ديوان المتنبى ـ البرقوقى ـ جـ ٢ ص ٥١ .
(٩٠) ديوان المتنبى ـ البرقوقى ـ جـ ١ ص ٢٥٠ .
(٩١) ديوان المتنبى ـ البرقوقى ـ جـ ٢ ص ٣٤٤ .
(٩٢) ديوان المتنبى ـ البرقوقى ـ جـ ٢ ص ٣٣٠ .

وفى تعب من يحسد الشمس نورها
ويجهـد أن يأتى لها بضريب (٩٣)

فتشبيه الانسان بالشمس معروف ، وتأتى له الاغراب فيـه من المجىء بصفة الحسد مسندة الى أعدائها « أى أعداء الانسان المشبه بها » ، ثم المبالغة فى الاغراب بتصوير هذا الشاكىء مجتهدا فى المجىء بمثيل لها ! ومثله قوله :

فمن كان يرضى اللؤم والكفر ملـكه
فهذا الذى يرضى المكارم والرينا (٩٤)

ومن أقواله التى أراد لها السيرورة قـولـه فى رثاء أخت سيف الدولة :

ومن تفكر فى الدنيا ومهجتـه
أقامه الفكر بين العجز والتعب (٩٥)

وقوله فى مدح سيف الدولة :

فان قليل الحب بالعقل صـالح
وان كثير الحب بالجهل فاسد (٩٦)

ومما جرى مجرى الأمثال من أقواله ما ختم به رثاءه لأبى شجاع فاتك :

---

(٩٣) ديوان المتنبى ـ البرقوقى ـ جـ ١ ص ١٨١ .
(٩٤) ديوان المتنبى ـ البرقوقى ـ جـ ١ ص ١٩٥ .
(٩٥) ديوان المتنبى ـ البرقوقى ـ جـ ١ ص ٢٢٥ .
(٩٦) ديوان المتنبى ـ البرقوقى ـ جـ ص ٤٠٤ .

أتى الزمان بنـــوه فى شـــبيبته
فسرهم وأتيناه على الهمـــرم (٩٧)

ومما جرى مجرى الحكمة فى قوله فى مدحه :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجتـــه
ما فاته ، وفضول العيش أشغال (٩٨)

ومما قصد به ذلك ولم يعنه عليه لفظه قوله :

غثاثة عيش أن تغث كـــرامتى
وليس بغث أن تغث المـآكل (٩٩)

نستخلص من هذا أن مذهب المتنبى فى الصنعة قد تجلى أكثـر التجلى فى خواتيم قصائده التى جهد فى تزيينها وتنميقها على النحـو الذى تبين آنفا . وأنه قد فتح باب التصنع واسعا أمام من جاء بعده كأبى العلاء ، وهذا التصنع هو الذى أفضى الى التكلف والمبـالغات السمجة فى شعر ابن سناء الملك وابن الفارض والبهاء زهير والبوصيرى وصفى الدين الحلى ، ولا عجب أن يفضى التكلف عند هؤلاء الى الركاكة التى صاحبت الشعر منذ ذلك الحين الى مطلع عصر النهضة ، ولا عجب أن نجد الشاعر فى هذه الآونة يمســك ورقة وقلما ويحسب أحـرف خاتمته بحساب الجمل ليؤرخ لحادثة أو لمناسبة القصيدة ، الأمر الذى أصبح لازمة فى خاتمة كل قصيدة لها مناسبة فى العصر العثمانى (١٠٠) وخرج بالشعر عن أصل وظيفته ومسار صناعته وأداته . اذ ما للأرقام والمشـــاعر ؟!

---

(٩٧) ديوان المتنبى ـ اليازجى ج ٢ ص ٣٨٦ .
(٩٨) ديوان المتنبى ـ اليازجى ج ٢ ص ٣٧٣ .
(٩٩) ديوان المتنبى ـ اليازجى ـ ج ١ ص ١٣٥ .
(١٠٠) تاريخ آداب ـ مصطفى صادق الرافعى ج ٣ ص ٣٧٧ .

وفى عصر النهضة لم تخرج القصيدة العربية عن اطارها المعروف قديما ، ولا نبالغ اذا قررنا أن شعر المحافظين المحدثين لا يفترق من شعر العصر العباسى فى شىء ، وخواتيم هذا الشعر لها الطابع نفسه ، لا يختلف كثيرا الا أن الحس الحضارى ، وتشعب الموضوعات واتساع آفاق الشاعر وتطلعاته ومداركه ، مكن لبعض الشعراء دون آخرين من الأغراب على تفاوت بينهم فى ذلك ، مما جعل القصيدة عند هؤلاء المجودين تصبح ذات نهاية محددة أكثر ولاتقبلجدلا حولها، وان استخدم هؤلاء الشعراء كثيرا من الوسائل التقليدية للايحاء بالنهاية والانقطاع ، وأوضح ما يظهر ذلك فى خاتمة حافظ لقصيدته على لسان اللغة العربية التى يذكر فيها الموت ، وهو من الوسائل التقليدية التى لمحناها فى خواتيم القصائد التقليدية قديما،ومعذلكفهو يبسط شكاة اللغة العربية بوعى حضارى يبرز الفرق واضحا بين الفكر السائد فى عصره وما قبله من عصور •

الى معشر الكتاب ، والجمع حافل
بسطت رجائى بعد بسط شكاتى
فاما حياة تبعث الميت فى المبلى
وتنبت فى تلك الرموس رفاتى
واما ممات لا قيامة بعده
ممات لعمرى لم يقس بممات (١٠١)

وليس فى القصيدة المعاصرة ما يلفت النظر اليها أكثر من ذلك ، ويلاحظ أن الدعوات الملحة الى ربط القصيدة بعنصر الوحدة العضوية — الذى يدعى الداعون أنه مفقود فى القصيدة العربية — لم ينجح فى تغيير شى من سمات القصيدة المعاصرة ، أو زيادة الرابط بين الخاتمة وموضوع القصيدة ، أكثر مما هى عليه ، — وهو ما يعنينا هنا — حتى

---

(١٠١) ديوان حافظ جـ ١ ص ٢٥٣ •

عند هؤلاء الداعين أنفسهم أمثال العقاد والمازنى وشكرى ، ولم نعلم شاعرا وجه عناية خاصة الى خاتمة القصـــيدة فى عصرنا ، اللهم الا ما أدعاه عمر أبو ريشة من أنه يحرص على ختم قصائده بمفاجأة،وأنه يعمد الى ذلك عمدا (١٠٢) ، ولم أجد فى ديوانه أو مما وقعت عليـه من قصائده المنشورة الا قليلا مما يلفت الانتباه ، ويؤيد ذلك ، بل ان خواتيمه عادية وأكثر ، والعجيب أن عنصر المفاجأة فى الخاتمـــة الوحيدة التى لفتتنى اليها جاء من ذكر الموت أيضا ، والجديد فيها هو المفارقة الغريبة بين «المظاهر» (١٠٣) ــ وهو اسم القصيدة ــ وبين الحقيقة المرة التى أدت الى الانتحار فى النهاية ، فالقصيدة تشير الى فتاة أوتيت كل ما تحلم به الأنثى ، وكأنها خلقت للناس منها شىء ، والقصيدة جيدة حقا وفيها تأنيب خفى لمن يحسدون الناس على مابظهر منهم ، وهم يجهلون حقيقتهم ، ويعمون عن أدوائهم ، وأبيات هـذه القصيدة ثمانية فقط ، وهى على قلتها عبارة عن قصة يبدأها الشـاعر بالتعريف بالبطلة :

هى جارتى ، لم أدر ما تسعى
هى لاجمال الفتنة العظمى

ويصفها : جمالها ، نظرتها ، شغف الناس بها ، طهرها ، رغـــد عيشها ، وفجأة :

وتوالت الأيام .. لم أرهـــا
فسألت..قالوا .. عبت السما !

وللشاعر خواتيم شتى منها ما يذكر الموت كقوله :

---

(١٠٢) ملحق جريدة النـدوة ــ الأحد ٢٥ صفر سـنة ١٤٠٥ ـ ١٨ نوفمبر ١٩٨٤ .
حديث مع الشاعر .
(١٠٣) ديوان « عمر أبو ريشة » ص ٣٦٩ .

هناك خلف الموقد المســـــعر
امـــــرأة داميـــة المنظـــر
تغزل خيط الكفن الأحمر (١٠٤)

وفى قصائد أخرى يذكر الدهر ، والحزن ، والمحادثات ، والأمل، وما فى معناها ، وهى من المعانى المطردة فى خواتيم القصيد العربى ، بل انه أحيانا يحاول الصنعة اللفظية على استحياء ، ويأبى الا أن تكون موظفة لتجويد المعنى وتوضحه ، وابراز صفة «الاغراب» فى الخاتمة، مع شىء من المبالغة يسير كقوله فى ختام مناجاة لمحبوبته عنـــوانها « أخاف عليك » :

دعى ماضى يطـــــــوينى ، فانى
أخاف عليك من خوفى عليـــك (١٠٥)

ففى هذه المناجاة نرى الشاعر يشحن كلمة « الخوف » بمعنى مضاعف ، ليحمل الى نفس سامعه شيئا من لذة شـــفقة المحب عـــلى حبيه وخوفه عليه وحرصه ، لندرك مدى تملك هذه العاطفة لشـــاعر هذا الحبيب ، الذى يخاف على حبيبه من خوفه عليه !.

وهو فى مناجاة أخرى يوظف لفظة الحب مرتين ليبالغ فى اظهـــار ذلك الشعور ، كما وظف الخوف فى السابقة ، فيقول :

ما يستعير الحب من حبنـــا (١٠٦)

وليس وراء ذلك فى شعر المعاصرين ما يستحق أن يضيع فيـــه الناقد ورقه وحبره فضلا عن جهده !.

---

(١٠٤) نفسه ص ٣٧٤ .
(١٠٥) نفســه ص ٣٢١ .
(١٠٦) نفســه ص ٥٢٥ .

هذا .. ولقد أفاض المؤرخون والنقاد فى الحديث عن طبيعة القصيدة العربية ، ولم يغادروا فى حديثهم ونقدهم ، وصف المقدمات، وتعدد الموضوعات فى القصيدة ، ولم يسعفهم الحس الأدبى بالرغبة فى استقراء الشعر العربى أو ما وصلنا منه ، ليظفروا بوصف دقيق للقصيدة العربية ، ومدى صدقها فى التعبير عن الواقع العربى والبيئة البدوية ، والنفس العربية ،والذى فعل منهم لم يجاوز الحديث عن الصحراء والناقة وصفات الشجاعة والكرم والعصبية ، وأضيف اليها فى الاسلام وصف البلاطات التى يلعقها الشاعر بلسانه طمعا فى المكافأة وما تزال القصيدة العربية فى حاجة الى درس كلى يتناولها كوحدة فنية متكاملة ، لا كجزئيات أسلوبية ولفظية مما أدى الى أخطاء كثيرة فى الحكم على الشعر والشعراء العرب قديما وحديثا ، وان خاتمة القصيدة من حيث هى عضو من أعضاء كائن حى زاخر بالحركة،مشحون بالعاطفة حرية بأن تنال شيئا من ذلك لكيلا يصيبها ما أصاب القصيدة، ولكن نستعين بها على درس ذلك الكائن الحى ، ولا نخطىء فى الحكم عليه، فقصيدة الأعشى اللامية فى مدح الأسود بن المنذر ، التى مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالى وما ترد سؤالى

جاءت فى رواية الديوان (١٠٧) وهى رواية ثعلب — فى خمسة وسبعين بيتا ، آخرها قوله :

لن يزالوا كذلكم ثم لا زا .... ت لهم خالدا خلود الجبال

ولكن صاحب الجمهرة لم يرتض ذلك وقال : « ذكروا أن باقى

---

(١٠٧) ديوان الأعشى ص ٣ .

القصيدة مصنوع ، وما أحسب » (١٠٨) وأثبت بعد هذا البيت ثلاثة وعشرين بيتا أولها :

فلئن لاح فى المفارق شـــيب يا آل بكر وانكرتنى الغوالى

وهى فى وصف ذكريات شبابه ، ومرحه ، وهواه ، وصـــيده ، واستطرد فى وصف الصيد ، ومجلس اللهو والطعام مـــع الشباب من رفاقه وختم :

وظللنا ما بين شاو وذى قد
ر وساق ومســمع محفـــال
فى شباب يسقون من ماء كرم
عاقدين البرود فوق العوالى
ذاك عيش شـــهدته ثم ولى
كل عيش مصيره للزوال (١٠٩)

وذهبوا الى أن النهاية الأولى تتفق مع الطابع العام للشـــعر الجاهلى وأن الأبيات الزائدة معدومة الصلات بالغرض العـــام القصدية ، وهو المديح فى حجج أخرى كثيرة ، ويلاحظ فى هذه القضية أمـــور :

أولها : أن اطراد صلة معينة فى الشعر الجاهلى كالمطالع الطللية، وختام المدح ببيت القصيد أم يصنع من مجىء ما يخالف ذلك ، ولو شذوذا ، ولدواع وعلل منها مما تبين وعرف ، ومنها ما أم يدركه الرواة والمؤرخون والنقاد وبقيت فى نفس الشاعر ودفنت معه ، فالشـــاعر

---

(١٠٨) جمهرة أشعار العرب ص ١٢٢ .
(١٠٩) جمهرة أشعار العرب ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

الذى يقف فى ميدان المنافرة والمفاخرة لا وقت لديه للمقدمة الطللية ، فلا مانع من أن يبدأ قصيدته بمثل هذا المطلع :

ياذا المخـوفنا بقتـــل أبيه اذلالا وحينـــا
أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذبا ومينا (١١٠)

ولا بأس على الآخر ــ الذى وقع فى يد أعدائه فشـدوا لسـانه لئلا يهجوهم ، ثم أطلقوا عنه بعد أن قطعوا له عرقا وتركوه ينزف حتى الموت ــ فى أن يبدأ بهذا المطلع :

ألا لا تلومانى كفى اللوم ما بيا
وما لكما فى اللوم خـــير ولا ليا
ألم تعلما أن الملامة نفعهـــا
قليل ، وما لومى أخى من شماليا (١١١)

والمطالع أولى بالالتزام ، ومخالفتها تدلنا على أن الشاعر قـد يتحلل من الملزمات اذا بدا له ما يعرفه عنها :

ثانيا : فى شعر الأعشى نظير لهذا الاستطراد ، وذاك فى قصيدته التى يمدح بها قيس بن معد يكرب ، ومطلعها :

أتهجر غانيـة أم تلم أم الحبل واه بها منجـذم

وقد ختم المديح فى البيت الخمسين منها ، واستأنف بعده حديثا مختلفا فى اثنين وعشرين بيتا يعزى فيها ابنته عن فراقه اياها وقـد

---

(١١٠) عبيد بن الأبرص يخاطب امرأ القيس ديوان عبيد ص ١٣٥ .

(١١١) عبد يغوث بن وقاص الحارثى ــ المفضليات ص ١٥٥ ــ وتشبهها وزنا وقافية وموضوعا طويلة مالك بن الريب فى رثاء نفسه وهى مشهورة ، أنظر : جمهرة أشعار العرب ص ٢٨٥ .

عزمت عليه ألا يرحل ، ويروى لها طرفا من رحلاته ، ويتعرض لمصائر الأمم ، فيروى لها قصة قصر الحضر وأهله ومصيرهم ثم قصة سبأ وسدهم المشهور وما أصابهم أمام السيل وتشردهم بعده ويختم :

فعاشوا بذلك فى غبطة
فجار بهم جارف منهزم
فطار القبول وقيلاتها
بعمياء فيها سراب يطم
فطاروا سراعا وما يقدرو
ن منه لشرب صبى فطم(١١٢)

كما أن لهذه الظاهرة نظائر فى شعر المعاصرين للأعشى ، ومنهم حسان بن ثابت فى لاميته التى ميدح بها عمرو بن الحارث الغسانى ومطلعها :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل
بين الجوابى فالبضيع فحومل(١١٣)

والقصيدة ــ على قصرها ــ سار فيها حسان على النهج الذى اتبعه الأعشى فى لاميته التى بين يدينا ، ولكنه ظلم ممدوحه اذ جعلها مناصفة بينه وبينه ، فقد ختم المديح الجيد الرائق بالبيت الرابع عشر من القصيدة وهو شجى ورائع وفيه اعراب يصلح خاتمة لقصدته :

فلبثت أزمانا طوالا فيهم ثم ادكرت ، كأننى لم أفعل

وشحنته من الشجى والتأثير ، تكاد تعادل ما فى بيت الأعشى الذى ختم به المديح فى لاميته وهو :

---

(١١٢) ديوان الأعشى ص ٤٣ .
(١١٣) ديوان حسان ص ١٨٠ .

ان يزالوا كذلكم ثم لازلت لهم خالدا خلود الجبال

والأبيات الأربعة عشر الباقية من القصيدة حديث كحديث الأعشى فيه ذكريات وفخر ، ولم يخالفه الا فى حديث الصيد الذى انفرد به الأعشى ، وفى أن ختامه لم يكن فى قوة الأعشى ، بل انه يكاد يكون مبتورا •

وهذا الحديث المستأنف بدأه حسان بما بدأ به الأعشى أيضا ، الحديث عن الشيب قال حسان :

اما ترى رأسى تغير لونه شمطا فأصبح كالثغام المحول

وقال الأعشى :

فلئن لاح فى المفارق شيب
يا آل بكر وأنكرتنى الغوالى
فلقد كنت فى الشباب أبارى
حين أعدو مع الطماح ظلالى(١١٤)

وهذا التوازى بين القصيدتين يقطع بأن ثمة شعرا كان يمكن ألا يختم الغرض الأصلى من القصيدة ، سواء عند الشعراء عموما أو عند الأعشى نفسه ، فليس ثمة ما يمنع من أن يكون هذا تمام القصيدة لا زائدا عنها •

ثالثا : كثير من شعراء الجاهلية وصدر الاسلام كان يحلو لهم أن يذيلوا قصائدهم — على اختلاف موضوعاتها — بأحاديث الذكريات ولا سيما حديث الصيد ، وقد مرت فى صدر كلامنا أمثلة منها قصيدتا ضابىء بن الحارث والمزود •

---

(١١٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٣٤ •

رابعا : القول بأن البيت المذكور « لن يزالوا » يصلح خاتمة لقصيدة ويوحى بالانقطاع ، لا يقطع بذلك ، حيث قد سرد فى ثنايا القصيدة ولا سيما بين مقاطعها اذا اختلف الموضوع أبيات من هذا القبيل ، وأقرب مثال هو ما ذكرنا فى قصيدة حسان ، وقوله « فلبثت أزمانا » .

خامسا : دفع ارتباط هذه الأبيات بالقصيدة موضوعيا يبطله ثلاثة أمور :

الأول : أن هؤلاء النقاد مسلمون بتعدد الموضوعات فى القصيدة العربية ، فلا معنى للدفع أصلا على فرض عدم الارتباط .

الثانى : أن هذه الأبيات مرتبطة وثيقا بالتداعيات التى شرع فيها اعشى فى مطلع القصيدة وذكريات المحبوبة وديارها والرحلة وما اليها قبل أن يشرع فى المديح ، وهذا نسميه الارتباط بالموضوع .

الثالث : أن الغرض من القصيدة هو المدح وهذا يتبعه طلب المكافأة ، وقد يظن أن الأبيات لا ترتبط بالغرض وان ارتبطت بالموضوع ، ولكننى أراها مرتبطة بالغرض ارتباطا خفيا ، ولكنه وثيق ، فالقصيدة ان ختمت بالمدح ، فالشاعر عادة — ولا سيما الأعشى — يطلب عطيته عليها صراحة أو تعريضا ، وذلك عند الأعشى هو الأصل ، فهو القائل :

وقد طفت للمال آفاقه عمان فحمص فأوريشلم

ولهذا نراه يطلب المال صراحة ، بل يقرن رأيه فى ممدوحه بما سيعطيه فيقول :

ونبئت قيسا ولم أبله
كما زعموا خير أهل اليمن...

فجئتك مرتاد ما خبـــروا
ولولا الذى خـــيروا لم ترن
فلا تحرمنى ندالك الجـــزيل
فانى امرؤ قبلكم لم أهن(١١٥)

وعلى غير عادته لم يطلب الاعشى فى هذه القصيدة « اللامية » ولا فى أختها « الميمية » الأسود وقيس ، عطية ، وكلتا القصـــيدتين استأنف فيها حديث الذكريات ، فهل هذا من قبيل المصادفات ؟ وهـــل من قبيل المصادفات أن حسان أيضا فى لاميته المذكـــورة لم يطلب من عمرو بن الحارث الغسانى عطية ، وقد استأنف كما ذكرنا كما استأنف الأعشى ؟ واضح أن هناك ارتباطا بين هذا الحديث والاســـتغناء عن الطلب ، ولعله استعاضة عن هذا بذاك ، يريد الشاعر به أن يشـــبه الممدوح الى نفسه وعيشه وأولاده وطموحاته .. الخ من أجـــل أن يستدر حلا به ، وينال عطفا من خزانته ، وهذا هو الرابط الوثيـــق ، والتعليل الوحيد لمجىء ذلك الاستطراد بعد المدح فيما ذكـــرنا من قصائد ، ولعلها طريقة كانت معروفة ، ومصطلحا عليها اذ ذاك .

أما الختام الذى ختم به الأعشى قصيدته فانه من أكثر خواتيم القصائد العربية تأثيرا وتناسبا مع الموضوع ، وجريا على حد الخاتمة كما أوضحنا فيما ســـبق .

وهذا المنهج يمكن أن نطبقه على كثير من القصائد التى اختلف فيها ، كقصيدة شوقى التى مطلعها :

وسقيمة الأجفان لا من علة تحيى العميد بنظرة وتميته

---

(١١٥) ختام قصيدته النونية فى مدح قيس بن معد يكرب ـ الديوان ص ٢٥ .

فقد نشرتها مجلة الرسالة : فى ١٥ أكتوبر ١٩٣٣ وأشارت الى أنها لم تتم وكان شوقى نظمها ابان منفاه فى أسبانيا الذى رجع سنة ١٩١٩ م ، وأشار الدكتور السوربونى فى الشوقيات المجهولة الى أنها نظمت ١٩١٨ ، وهى عبارة عن حوار بينه وبين زوجته حول ما نالهما من الضر فى هذا المنفى وشماتة الأعداء ، وتنبهه الزوجة فى النهاية الى أن أعداءه يهجونه فماذا يصنع ؟ ، فيختم شوقى كلامه بحديث عن منهجه فى ذلك فيقول :

أخذت به نفسى فقلت لها : دعى
ما شاءت الأخلاق لا ما شئته
من راح قال الهجر أو نطق الخنا
هذا بيانى عنهما نزهته
الله علمنيه سمحا طاهرا
نزه اللخلال ، وهكذا علمته (١١٦)

ترى أى منهج غير ما سرنا عليه يمكن أن يقطع بتمام هذه القصيدة من عدمه ولا سيما أن الدليل التاريخى منقطع ، وما ذكروه لا يمنع عن التساؤل :

اذا كانت غير تامة ، فلماذا تركها شوقى أربع عشرة سنة دون أن يتمها ؟ ومشاعر القارىء تهتف به : أى تام وختام خير من ذلك الذى انتهت به ! ؟

وكذلك قصيدة هاشم الرفاعى المشهورة : «رسالة فى ليلة التنفيذ»

---

(١١٦) الموقيات المجهولة جـ ٢ ص ٢٤٣ .

التي أشار محقق ديوانه للمرة الثانية الى أنه وجد لها تتمة طويلة كانت مخبأة لأسباب سياسية (١١٧) .

وكذلك كل شعر تعرض فيه قضية تاريخية أو فنية تتعلق بنسبته الى قائله أو عصره أو مكانه أو موضوعه أو مناسبته ، أو تركيبه أو تصويره أو قيمته الفنية ، فهو لا يستغنى عن دراسة موضوعية للقصيدة ، تولى خاتمتها عناية خاصة ، اذ أن هذه الخاتمة تعد مؤشرا للتوافق المعنوى والموضوعى ، ومقياسا للاجادة والسبق ، لأنها تحمل كثيرا من القيم التاريخية والفنية ، فى القصيدة العربية .

كاظم الظواهرى

---

(١١٧) ديوان هاشم الرفاعى ـ تحقيق حسين بريغش ـ ص ٢٩٩ ، ص ٤١٠ .